تفاخر ألقاب الإعراب تفاخر أنداد الأعراب وأخذ كل واحد بالإلمام ويظهر مزاياه في الكلام فلما طال الجدلُ وعزّ عن الاحتكام البدلُ سأل أحد المتخاصمين عن قاض متضلع أمين فقال أحد من حضر الخصام إن ههنا قاضيا يجيد الفصام وهو مقسط لا قاسط وفي القضاء ثقة ضابط فاتفق الخصماء على تحكيمه والرضا بما أقر وتسليمه ثم ذهبوا إليه وكل واحد يستجمع ما لديه حتى وصلوا إلى حاجب القاضي المجد في الخدمة والتراضي فاستأذنوه بعد السنة والمعروف من الأمر في دخول بحبوحة القصر فقال لهم الحاجب يا وفد الخير والمناقب إن القاضي في هذه الأيام مشغول بمسائل الكلام وتمييز المراتب من أجزاء الخطاب ومسالك النوازل من تلك الهضاب وإني أرجو قبول العذر من غير تلك الأجناس والسلامة مما لهم من الأدناس فبادر أحد الجماعة متحليا بالجرأة والشجاعة وقال إن هذا لمن الأعاجيب القلائل وغرائب الاتفاق الجلائل فقال الحاجب للمخاطب ألا تخشى من المعاطب حين تلمّح وتكاد تصرّح بأنك ومن معك منسوب لمن أودعته سمعك فقال المتبادر وفرائصه ترتعد إن الحقيقة وإن كان الحاجب يرعد ما لو صرّحت به لعظمت الشبهة ولَعَلَتْ على صافي زلالنا الشهبة فإن كان لا بدّ واستلزم الوطر ما شدّ أقول ولا أتقوّلُ ناشرا من الأمر ما هو أوّلُ فقال الحاجب على رسلك يا معتوه فإن إكثار الكلام عند أبواب ذوي المروءات مكروه

فانتظروني حتى أذكر له أمركم وفحواه فإنني عهدته معجبا بمثله ويهواه فلما دخل عليه بالسكينة سرد عليه ما سمعه من الألفاظ وما فهمه بالقرينة فأذن القاضي لدخول الفتية أصحاب القضية البدعة فأمر أحدهم بسرد القصة الجميلة وتفاصيلها الجليلة فقال مثمنا ما نال إننا منذ أن نشأنا في حضن السلف وترعرعنا في ربوع الخلف نتعاقب ولا نتشاجر ولا يبالي أي واحد منا بمقام الآخر حتى هجم عصر المنافسة في الرتب وعم ذلك في المآثر والقُرَب فأجبرنا الحال في خوض هذا اليمِّ ولم ندر ما نحصده من العار والذمِّ وكل واحد منا وإن كان يؤمن بالتفاضل وتنوع الفضائلَ والفواضل لا يعرف إلا فضله ولم يجرب إلا نصله وبعد اللجاج في تلك اللجج ظهر جليا بالحجج أن أصل الفضل مقسوم بين الجميع ولكل خصم منا جانبه المنيع لأننا في الحل والترحال ولا ينتقل أحدنا عن مكان إلا حل فيه الآخر في الحال ثم بعد الاتفاق على هذا المبنى برز الخلاف في فهم المعنى هل المكانة المقصودة واحدة فهي للمتصف بها عائدة ثم مَن الأفضل في الكلِّ وما هو ترتيب المناصب في الجلِّ ودونكم الخصومة المحتاجة إلى الحكومة فقال القاضي إنه قد ثبت عند القاصي والداني عند أهل المعرفة بالألفاظ والمعاني أنكم زمرة لا تغيب عن الخطاب مشهورة بألقاب الإعراب وهي عند من وصفه التيقُّظ والحزمُ الرفع والنصب والجر والجزمُ فلم يبق إلا إقامة كل واحد منكم دلائه وتوهين الخصم وسائله فقال للرفع آت ما يحويه جنانك ويستطيع صياغته لسانك فقال أيها الحكم الذي زانته الشيم والحِكم إني لم ادّع فضلي هذا باطلا فتخالني من الأدلة عاطلا لأنني سميتُ بالرفع وناهيك به من اسم ونُعِت موصوفي بالمرفوع وناهيك به من وسم ولا تخفى مكانة الأسامي في الدلالة على معنى في المسمى عند جميع الأنام وأما مرتبتي في الكلام المعرب فظاهرة في تراكيب لسان العرب إذ لا تخلو مني

جملة مفيدة وتلك مزية عن غيري مسدودة ثم لما بني بيت الإعراب خُصِّصت بالعمد ولا توكل إلى غيري إلا على سبيل الإعارة في كل أمد ولكني بهذه الخصائص أتحدّى كلَّ من على حق غيره تعدَّى ولي غير هذا في المزادة حين أضطر إلى الزيادة فقال القاضي للنصب أرنا ما عندك ليعترف لك بالفضل من قبلك ومن بعدك

فقال النصب إنني نصبت كالعلامة المحكمة للدلالة على المعاني المبهمة وخصصت بأكثر المعربات العربية إذ يتصف بي ما يناهز عشرين معربا ولي في العمد حصة معتبرة عند من يراها رتبا ولي ذخر آخر لوقت الحاج حين أضطرّ لسلوك تلك الفجاج

وقال القاضي هلم يا جرُّ لئلا يقول القوم إنك غِرٌّ فقال الجرُّ أنا زروة سنام الإعراب بشهادة أولي الألباب إذ لا يتصف بي من المعربات إلا عريقها ولا يدنو مني متطفِّلها ولا دخيلها وأنا مع ذلك حلة المالك إذا أضيف إليه ومورد جزء من كلام العرب محتاج لما لديه ولي ذخر مرصد إذا لزم للذخائر مقصد ثم أمر القاضي الجزم بالكلام وارتدائه الحزم فقال الجزم إنني خصصت بالجد والإنشاء وأُبعِد عني ما فيه الهزل من الأشياء وأثري في الكلام مشهود ومقامي في مراتب الإيمان محمود ولي عند النوازل ما أعددته من الدلائل فقال الحاكم إن التلوُّم مستحسن عند التقارب في الحجج والتريث معمول به عند مخافة اللجج لأن القضية قضية ترجيح بين البراهين وتلك سنة ماضية عند السلاطين فلا بتّ إلا في قادم الأيام بعد البحث ومشاورة عقلاء الأنام